مجلة المجمع العلمي العربي

أيار وحزيران سنة ١٩٤٣ شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ١٣٦٢

اختيار الألفاظ

تخير الألفاظ في نسج الكلام هو ركن عظيم من أركان البلاغة والفصاحة . والبلاغة تكون في المعاني والفصاحة في الألفاظ . وكيف لكلام أن يكون بليغاً إن لم تكن الفاظه منتقاة فصيحة يتفهمها الخاصة والعامة وقد ثبت[١] عن العرب أنهم كانوا يرون الفضيلة في ترك استعمال الغريب وتجنبه ، ومدح عمر بن الخطاب كلام زهير لأنه لا يعاظل بين القول ولا يتتبع حوشي الكلام فقرن تتبع الحوشي وهو الغريب من غير شبهة إلى المعاظله التي هي التعقيد . والوحشي أو الحوشي من الكلام[٢] ما نفر عن السمع وإذا كانت اللفظة حسنة مستغربة لا يعلمها الا العالم المبرز والاعرابي القح فتلك وحشية كما قال ابن رشيق . ولا تكون الكلمة فصيحة الا اذا كثر استعمال العرب الموثوق بعربيتهم أو أكثروا من استعمالهم ما بمعناها[٣] والغرابة ان تكون اللفظة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج الى معرفتها الى أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة

وزاد بعضهم في شروط الفصاحة خلوص اللفظ من الكراهة في السمع بأن يمج وينبو عن سماعها كما ينبو من سماع الأصوات المنكرة فان اللفظ من قبيل الأصوات والأصوات منها ما تستلذ النفس بسماعه ومنها ما تكره سماعه ، فلفظ الجرشى في قول أبي الطيب المتنبي « كريم الجرشى شريف النسب » أي كريم النفس مردود لأن الكراهة لكون اللفظ حوشياً .

(١) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني (٢) العمدة لابن رشيق

(٣) الايضاح للقزويني نقله السيوطي في المزهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمفهوم من كلام[١] ثعلب أن مدار الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها وحرر المتأخرون لذلك ضابطاً يعرف به ما أكثرت العرب من استعماله من غيره فقالوا الفصاحة في المفرد خلوصه من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس اللغوي ومثلوا لذلك بلفظ الهمخع ومستشزرات . ونحن ندرج في ذلك أيضاً الفاظاً استعملها الفيروزابادي في مقدمة القاموس المحيط تصدق عليها قاعدة المتأخرين من ذلك قوله : « الدأماء الغطمطم » والغطمطم البحر العظيم الواسع وقوله : « شماطيط » وأراد بها متفرقة و « اليلمع » الذي يلمع ويتوقد ذكاء ويتفطن للأمور « العروف » مبالغة في العارف أي ذو المعرفة التامة « المعمع » أي ذو الصبر على الأمور ومزاولتها . « اليهفوف » الحديد القلب « حماطة جلجلانهم » سويداء قلبهم . وهذه الألفاظ لم يسبق لأحد استعمالها في كلام يراد منه افهام القارىء والسامع . وما ارتكبه صاحب القاموس لم يرتكبه الزمخشري في مقدمة أساس البلاغة والفائق ولا ابن منظور في مقدمة لسان العرب ولا ابن سيده في المخصص . فهؤلاء علماء باللغة ولكن أخذوا بالمشهور العذب وما كل مافي اللغة صالح للاستعمال

يقول الهمذاني[٢] ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة والحرف الشاذ ليتميزوا بذلك عن العامة ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو . والخرس والبكم أحسن من النطق في هذا المذهب الذي تذهب اليه هذه الطائفة في الخطاب اهـ .

والفارق في الألفاظ الغريبة صعب تحديده ، وما كان الغريب في عصرنا غريباً في عصور ازدهار اللغة فقد رأينا كثيراً من الألفاظ الواردة في الكتاب العزيز وفي كتب السنة كادت تنسى ويبطل استعمالها في عهد انحطاط اللغة فلما نهضت نهضتها الأخيرة أحيي أكثر هذه الألفاظ فصارت من المألوف العذب الذي لا غرابة فيه وإنما أتتها الغرابة من عدم فهمها ولا تزال نرى ألفاظاً عربية وردت في كلام البلغاء ، ويكتب لها تجديد وظهور على ألسن ارباب الأقلام

(١) المزهر للسيوطي (٢) الالفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتعود الينا نأنس بها ونسد فراغاً من المعاني بعد ان نسي استعمالها عصوراً طويلة[١]، فنستعملها ونحييها وكنا نظن أنها ميتة . وقد سبق لي ان أحييت بعض هذه الفصح وكنت أتدرج في نشرها للناس وآتي بلفظة أو لفظتين في الفصل المكتوب فتستسيغها الأذواق وتعود من الصالح للاستعمال . وليس كل ما في متون اللغة مما يعد فصيحاً ولا كل ما هناك مما يعد غريباً . والمدار في تخير الألفاظ على الذوق أولاً وعلى اعتبارات أخرى ومنها استعمال البلغاء لها .

ذكر ابن فارس[٢] في باب مراتب الكلام في وضوحه وإشكاله أن واضح الكلام هو الذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب كقول القائل : شربت ماء ، ولقيت زيداً . وكما جاء في كتاب الله جل ثناؤه من قوله «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» وكقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً» . وكقول الشاعر

إن يحسدوني فاني غير لائمهم قبلي - من الناس - أهل الفضل قد حسدوا

وهذا أكثر الكلام وأعمه .

ثم ذكر المشكل فقال : وأما المشكل فالذي يأتيه الإشكال من غرابة لفظه ، او أن تكون فيه إشارة إلى خبر لم يذكره قائله على جهته ، او ان يكون الكلام في شيء غير محدود ، أو يكون وجيزاً في نفسه غير مبسوط ، او تكون ألفاظه مشتركة . فأما المشكل لغرابة لفظه — فقول القائل «يملخ في الباطل ملخاً ينفض مذرويه» الخ

ومن الألفاظ ألفاظ تواترت على الألسن من زمن العرب[٣] إلى اليوم وليست في القرآن وهي إلى اليوم شائعة كل الشيوع اي انها كانت معروفة مستعملة في الجاهلية والإسلام حتى العصور الحديثة ومنها ما كان له في الجاهلية شأن ثم جاء الإسلام وأسقطها او جعل لها معاني جديدة او استثقلتها الألسن فنبذتها ولم تكن لها بها حاجة لأن غيرها يسد مسدها إذ كانت لغة قبيلة من القبائل يمكن الاستغناء عنها او صفة لموصوف لا حاجة اليها كبعض اسماء الاسد والسيف .

(١) مبحث أفعال للاستعمال لصاحب هذه المقالة نشرت في المجلد الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي
(٢) الصاحبي لابن فارس [٣] المزهر للسيوطي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الألفاظ الإسلامية : المؤمن ، الكافر ، المنافق ، الصلاة ، الزكاة ، الركوع ، السجود . ومن الألفاظ التي كانت فزالت بزوال معانيها : المرباع والنشيطة والفضول والاتاوة والحلوان وغير ذلك من الكلمات .

اتسعت اللغة كثيراً بهذا الضرب من الألفاظ التي كانت في الاكثر لغة قبيلة من القبائل او وصفاً لشيء تغني عنه ألفاظ أخرى وردت في لغة قريش او غيرها فقد ذكر ابن خالويه أنه جمع للأسد خمس مائة اسم وللحية مائتين . ونحن الآن لا نحتاج الى هذا العدد الذي نتعلمه ونعلمه للناس بل يجزئنا منه المشهور والأفصح . وكلام العرب لا يحيط به الا نبي كما قال الشافعي .

ونحن قد رأينا حتى في كتب اللغة نفسها العذب السائغ من الألفاظ والجاف المهمل منها . ورأينا منها ما يصلح لكل زمان ومكان ومنها ما نخال انه لم يصلح في زمن من الأزمان فألفاظ كتاب الفصيح لثعلب والألفاظ الكتابية للهمذاني وفقه اللغة للثعالبي صالحة للاستعمال الا قليلاً . أما الكلمات التي شرحها ابن السكيت صاحب كتاب تهذيب الألفاظ وأبو زيد صاحب كتاب النوادر فهذه نبقيها في الصفحات مطوية ونبقي عليها كأنها عضو أثري من اللغة نحتفظ به كما نحتفظ بالعاديات وما جرت العادة ان نبني بناءً جديداً من مواد العاديات . وعلينا كما قال عبد القاهر الجرجاني ان تكون معرفتنا في نظم الكلم معرفة الصَّنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الابريسم الذي في الديباج وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع .

يقول دارمستتر في كتابه حياة (١) الألفاظ ان ليس في الألفاظ مترادف وليس هناك مترادفات لمعنى واحد ، وبقليل من التفكير يتجلى لنا أن كل لغة محكمة ليس فيها مترادف من كل وجه فان جميع الألفاظ المستعملة تحمل معنىً خاصاً بها ، وإذا وقع المرء في لغة من اللغات على عدة ألفاظ لأداء معنى من المعاني من مثل نبات او اسم آلة او عنصر صناعي فالواجب ألا يفوته ان لها كلها أماكن تستعمل فيها .

قال ان اللغة تأتي بكلمات جديدة او بمعان جديدة للإبانة عن أشياء حديثة

(١) Arsène Darmesteter : La vie des mots

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأفكار حديثة وأمور حديثة وتخص ألفاظاً بمعاني جديدة للاستعاضة عن كلمات أخرى بطل استعمالها، فلم تعد تطلق على ذلك الشيء . هذا في حياة الألفاظ أما في موتها فالواجب التمييز بين الألفاظ التي تنسى لأنها تدل على أشياء زالت والكلمات التي تخالف غيرها للإبانة عن معان قابلة للبقاء . فالألفاظ التي تموت ما كان منها يعبر عن أمور بطلت مثل اسماء بعض الأسلحة والأدوات والنقود والثياب والاوضاع والمسائل الاجتماعية والفكرية، فيبدأ أهل اللغة في نزع معنى من المعاني عن كلمة نزعاً تدريجياً . والكلمة لا تبقى إلا لأنها تعبر عن فكر فإذا ذهبت عنها هذه الصورة تطرحها اللغة كما تطرح ألفاظاً غير صالحة وعلى نحو ما تطرح إناءً فارغاً او مكسراً فتلقيه في القمامات .

قال والسبب في اندثار بعض الألفاظ ان منها ما يحمل في نفسه جراثيم الموت وعندئذ تعتاض اللغة عنها على صورة من الصور ألفاظاً أخرى تكون أسعد حظاً فتستولي على معناها وتستغرقها وتميتها . ومن الصنف الأول الألفاظ القليلة الحروف الضعيفة الصوت . ولا تعمل صورة الكلمة وحدها في موت الكلمة بل كثيراً ما يكون للمعنى دخل عظيم في هذه الألفاظ . فالألفاظ تموت في لغة بأن يبدأ جيل من الناس في زمن بطرح اللفظ الفلاني لان المعنى الذي يدل عليه تقوم مقامه لفظة أخرى فإذا جاء الجيل الثاني كانت معرفته بها اقل ثم يأتي عهد لا يعرفها فيه غير الشيوخ فاذا هلكوا تموت تلك اللفظة بموتهم . انتهى المقصود منه .

ومهما حاولنا ان نحيي ألفاظاً ميتة نحن في غنى عنها بما عندنا من مرادفاتها فلن نستطيع أن نبلغ الغاية ويتوقف حياة الألفاظ وموتها على أمور كثيرة أهمها الحاجة اليها وعدم الحاجة فالخلق ينبذون من عاداتهم ما لا يألفون وهم في غنية عنه بما عندهم والزمن يبقى على الانسب والأصلح من الألفاظ ويرذل غيرها حتى أن علماء اللغة لا يشغلون أنفسهم بألفاظ سمجة غير مستعملة . وقد رأينا كثيراً من الشعراء والكتاب الذين اعتمدوا على العويص لم يرزق شعرهم ولا نثرهم الحظوة ولم يكتب له البقاء وعلى العكس فيمن جودوا الانتقاء وكان لفظهم جزلاً من دون غرابة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسهلاً بلا تعقيد ومألوفاً لا تنفر منه الطباع ، ولا حاجة اليوم للدارسين أن يتناقلوا مالا حاجة لهم اليه ولا أن يصرفوا وقتاً في الرجوع إلى المعجمات للكشف عن عويص من اللفظ ما كانت حاجة اللغة في وقت من الأوقات داعيةً اليه .

في الصناعتين[1] «وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد ومعاني أهل السراة كأبي علقمة إذ قال لحجامه : اشدد قصب الملازم ، وأرهف ظبات المشارط ، وامرّ المسح ، واستنجل الرشح ، وخفف الوطء ، وعجل النزع ، ولا تكرهن ابياً ، ولا تمنعن أتيا . فقال له الحجام ليس لي علم بالحروب .

عن الأصمعي[2] قال : سمعت اعرابياً من غنيّ يذكر مطراً أصاب بلادهم في غب جدب فقال : تدارك ربك خلقه وقد كلبت الأحوال وتقاصرت الآمال وعكف الباس وكظمت الأنفاس وأصبح الماشي مصرماً ، والمترب معدماً وجفيت الحلائل وامتهنت العقائل فأنشأ سحاباً ركاماً كنهوراً سجاما ، بروقه متألقة ورعوده متقعقعة فسحّ ساجياً راكداً ثلاثاً غير ذي فواق ثم أمر ربك الشمال فطحرت ركامه وفرقت جهامه فانقشع محموداً وقد أحيا واغنى وجاد فأروى فالحمد لله الذي لا تكبت نعمه ولا تنفد قسمه ولا يخيب سائله ولا ينزر نائله .

وقد أورد علماء البيان من هذا القبيل أشياء تغثى منها النفس وربما صعب فهمها على العربي التح .

محمد كرد علي

(١) كتاب الصناعتين لعسكري (٢) الامالي لأبي علي القالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net